

وحده من يستحق الذكر



ذكر الله:

لابد للإنسان المؤمن عندما يذكر اسمَ ربِّه، ألا يذكره وقلبه غافلٌ، أو يذكره سبحانه كما يذكر أيَّ اسم من الأسماء، وذلك ليعرف مقامَ ربِّه ولينزّهه عن كُُلِّ صفةٍ من صفات المخلوق، فلا يحاول أن يساويَ بينه سبحانه وبين أيِّ مخلوق آخر ممن يعيش معه في أيِّ صفةٍ من الصفات، فإذا ذُكِرَ العلم، عليه أن يعرف أن ربِّه الأَعلم، وإذا ذُكِرَت القدرة، فإنَّ الله تعالى هو الأَقدر، وإذا ذُكِرَ أيُّ شيء، فإنَّ سبحانه يمثِّل أعلى الدرجات في كُُلِّ شيء، بحيث لا يساويه شيءٌ مهما كانت عظمته، لأنَّ كُُلَّ شيءٍ يستمدُّ وجوده من الله، وإذا كانت الأشياء تستمدُّ وجودها من الله، وتستمدُّ عظمتها وقوتها وغناها منه سبحانه، فكيف يمكن للإنسان أن يساوي بين الله وبينها؟

فإذا ذكرتَ الله، عليك ألا تذكر أحداً معه، ولذا جاء في القرآن الكريم (وَأَنْتَ اللَّهُمَّ سَاجِدٌ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) (الجن/ 18)، عندما تريد أن تذكر الله، فإنَّ عليك أن تذكره وحده، وإذا ذكرتَ غيره، يجب أن يُذكَرَ على أساس أنَّهُ عبدٌ ومخلوقٌ له ومحتاجٌ إليه، ومع كُُلِّ التعظيم والتقدیس لرسول الله (ص) وبأنَّهُ أفضلُ خَلْقِ الله، فعندما نذكر ونشهد أنَّ بوجدانية (أشهدُ ألا إلهَ إلاَّ الله) ونشهد للرسول (ص) بالرسالة (وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ)، فإنَّه مع عظمته وعلوِّ درجته وشأنه يبقى عبداً لله، وعظمةُ عبوديته لله، بمقدار إخلاصه في هذه العبودية.

إرتباط الذكر بمعرفة عظمة الله:

نعود إلى ذكر الله تعالى: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) (الأعلى/ 1-5)، نزَّه اسمَ ربِّك عن كُُلِّ صفةٍ من صفات المخلوقين، وكُُلِّ شأنٍ من شؤونهم.. وكانَّ الخطابَ القرآنيَّ يتوجَّه للإنسان متساوياً: أتعرف مقامَ ربِّك ومنزلته تعالى؟ والنص القرآني ليس بحاجةٍ للجواب.. فربُّك هو الأعلى، بحيث أنَّ كُُلَّ شيءٍ تتصوره، فإنَّه في مقارنته

با سبحانه، يكون هو الأسفل في كُـلِّ شَيْءٍ، وإِ هو الأعلى في كُـلِّ شَيْءٍ. فيجب أن نربِّي أنفسنا عليها، فلا يكفي أن نُدخلها في عقولنا، فنشعر أنَّهُ هو الأعلى، بل لابدَّ أن ندخلها في قلوبنا، فلا تخفق إلا له سبحانه وتعالى، وإذا خفت لغيره فمن خلاله وحده.

النظام الموزون:

وما هي صفة ربِّك فيما له من صفات قدسية؟ (الذِّي خَلَقَ فَسَوَّى) فإِ سبحانه فوق كُـلِّ شَيْءٍ، لأنَّه لا يساويه ولا يعادله ولا يماثله شيء، فخلق كُـلِّ شَيْءٍ فسوَّاه وأوجده وجعله مستقيماً سوياً في خَلْقته، فلا تجد مخلوقاً في الكون إلا وهو خَلَقُ إِ (وَالذِّي قَدَّرَ فَهَدَى) قدَّر لكلِّ شَيْءٍ حجمه ودوره وعلاقته التي تكامل مع نظام الكون، فيصبح الوجود متوازناً، لا اختلال فيه (إِنَّا كُنَّا شَيْءٌ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر/ 49)، فادرس - أيها الإنسان - المخلوقات الجامعة والحياة، أدرسها في شكلها وطبيعتها وحركاتها وخصائصها وعلاقاتها مع بعضها، فإنَّك تجد حدوداً لكلِّ شَيْءٍ فيها، بحيث لا تنقص ولا تزيد عن طبيعة الحدِّ الذي حدَّده إِ تعالى، وعلى هذا، فإنَّه (أَعْطَى كُـلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ زُجْجاً هَدَى) (طه/ 50)، بمعنى أنَّه سخَّره لدوره محدَّد ووظيفة معيَّنة، ووجَّهه للدور الذي أعطاه إيَّاه.. ولذلك لو أردت أن تدرس علومَ الطبيعة والنبات والحيوان والإنسان، وكلَّ خصائص الكون، لرأيت أنَّ كلَّ موجودٍ فيه ينطلق في نظام موزون يتحرَّك على قاعدة إكمال دوره في الحياة. ومعنى الهداية في الآية المباركة، أنَّ إِ سبحانه أوكل لكلِّ موجودٍ دوراً بحسب طبيعته، فهدي الشمس والقمر مثلاً لأنَّ ينتجا النور والضياء والدفع والحرارة (لا الشَّمْسُ مَسُّ يَنْدِغِي لَهَا أَنْ تَذُرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس/ 40)، وهكذا في الإنسان الذي هداه لمسؤولياته، وفي الحيوان والجماد والنبات (وَالذِّي أَخْرَجَ الْمُرْعَى) (الأعلى/ 4)، ومِن العشب والخضرة، التي ترعاها المواشي فتتغذَّى بها، وتستفيد أنت من لحمها وصفوها وما يُستخرجُ منها (وَمِنَ أَسْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَآشْعَارِهَا أَتْنَا وَمَنَّا إِلَى حَيْنٍ) (النحل/ 80)، وهكذا يبدأ المرعى أخضر طيباً يُبْهِرُ الأنظار، ثمَّ يُصبح يابساً (فَجَعَلْنَاهُ غُثَاءً أَحْوَى) يتحوَّل إلى هشيمٍ يابس (تَذُرُّهُ الرِّيَّاحُ) (الكهف/ 45)، فالغناء هو ما صار من العشب يابساً (أَحْوَى) أي أسود، أو مائلاً إلى السُّمرة.

وكانَّ إِ تعالى يُوجي للإنسان بأزَّه يخلق الأشياء فيُحييها ثمَّ يميتها إظهاراً لعظمته وقدرته، فيتحسُّس علاؤه في كُـلِّ ما حوله من الموجودات التي تحيط به، وربما ذكَّرَ القرآن "المرعى" وحده كونه يرتبط بالأرض، باعتبار أنَّه يمثِّل التجربة الحية التي توجي له بمسألة الحياة والموت (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (النحل/ 65)، فكما أنَّ إِ سبحانه قادرٌ على إحياء الأرض بعد موتها، قادرٌ على إحياء الموتى (إِنَّ الذِّي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فصلت/ 39).

ثمَّ تنطلق الآيات القرآنية مُوجِّهة لرسول إِ (ص) (سَدَّقَ رَبُّكَ فَلَا تَنْسَى) (الأعلى/ 6)، نُقِرُّك القرآن وآيات إِ ووجيه قراءةً تستقرُّ في عقلك وقلبك وكيانك لتستوعب القرآن في كلِّ عناصر هذا الكيان، فلا تنسى ذلك أبداً (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (الأعلى/ 7)، إلا إذا شاء إِ لك أن تنسى، ونحن نعرف أنَّ إِ تعالى لم يُرد للنبى (ص) أن ينسى أبداً، ولكنَّ ذكر ذلك حتى يُوجيَ إليه (ص) أنَّ أمره بيد إِ، وهو القادر على أن يُقرِّأه فلا ينسى (إِنَّهُ يُعَلِّمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) (الأعلى/ 7)، فعندما يُقرِّأك إِ ذلك، ويريد منك أن تبتلِّغه وتعلِّمه وتعمل به وتطبِّقه في حياتك وحياة الآخرين، تذكِّر هذه الحقيقة، وهي أنَّه سبحانه لا يخفى عليه شيء، فإذا جهرتَ بالشَّيء أو أعلنته فإنَّه يعلمه، وإذا أسررتَه وأخفيتَه، فكذلك يعلمه، فالجهر والسُّرُّ عنده سواء. أما البشر فيختلف عندهم حال الإعلان عن حال الخفاء، أما هو سبحانه، فالأمر عنده حالٌ واحد، لأنَّه يعرف عمقَ الأمور وخفاياها، كما يعلم سطحها وطواهرها. وهذه نقطةٌ إيمانية، من الضروري أن تعيش في وعي المؤمن، فكما أنَّ عليه أن يتقي إِ في الجهر، عليه أن يتقيه في الإخفات.

وبعد أن يُقرِّئَ إِ نبيَّه قرآنه، فإنَّه يسدِّده (وَنُذِيسِرُّكَ لِيَلْبِسُ رِي) (الأعلى/ 8)، نُيسِرُّ خطواتك - يا محمَّد - ودربك وحياتك ونهجك وكلَّ أمرٍ تتحرَّك فيه. واليُسرى مفسِّرةٌ باللجنة، أي نيسِرُّكَ للجنة بتيسير خطواتك نحو مواقع رضى إِ وطاعته التي تؤدِّي بك إلى الجنة.

مسؤولية التذكير با:

وبعد هذا العرض القرآني لقدرة الله وعلمه، ما هي مهمة رسول الله (ص) ومسؤوليته أمام ذلك؟ (فَذَكَرَ رَبُّهُ إِنَّ نَفْعَتِ الذِّكْرِى) (الأعلى/ 9)، وكما أن هذا الخطاب يطلب من رسول الله (ص) أن يذكر الناس بالله تعالى، فكذلك يحمل المسلم مسؤولية الدعوة إلى الله، ومسؤولية التذكير بثواب الله وعذابه.. لأن عليه كمسلم يحمل الإسلام في عقله وحياته - أن يقول كلمة الحق في أن يوفى وعي الناس نحو الحق، ويوظف في ذلك كل إمكانياته وقدراته، ولا يثبط عزيمته تمردهم وابتعادهم، كما يفعل الكثيرون الذين يتخلون عن دورهم في الدعوة، فيبررون إنسحابهم من الساحة بسبب أن الله ختم على قلوب البعض وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فما فائدة أن ندعو؟ فالجواب من حولنا يهزأ بنا ويسخر منا، فلماذا نتعب أنفسنا، خصوصا وأن النتائج معروفة هذا منطلق اليائسين الذي يهربون من مواجهة مسؤولياتهم، لأن الله يأمرنا أن نذكر حتى ولو وضعوا أيديهم في آذانهم، فلعل الكلمة تدخل إلى الأذن وتأخذ طريقها إلى العقل والقلب، ثم قد تأتي الكلمة الثانية والثالثة والرابعة، وربما توجد في شخصية من نذكره بالله خزانة من المواعظ، فيعود إلى الله، كما المطر ينزل خفيفا خفيفا، أو نقطة نقطة، فيأخذها الهواء ويجففها، ولكنها تبقى في الأرض شيئا من الرطوبة، فتأتي النقطة الثانية والثالثة تنزل إلى الأرض فتتحول إلى خزانة، لذلك، إن علينا أن نذكر من يقبل منا ومن لا يقبل حتى نعدر إلى الله (سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى) (الأعلى/ 10)، من عاش في قلبه الخوف من الله وحساب المصير، وفكر يوم القيامة. وإذا سمع كلمة الله أو لاء وثانيا، وكانت الغفلة تحيط بعقله وقلبه، فسوف تفتح كلمات الله ثغرة هنا في عقله، وثغرة هناك في قلبه، وثغرة هناك في شعوره، وستنفتح نفسه كلها على الله تعالى. وأما من عطّل سمع الأذن والقلب (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) (الأعلى/ 11)، ولم يبد أي استعداد ليفتح قلبه على الحق، وأعلن التمرد، وأظهر الكبر والاستعلاء والاستكبار، وأظهر عدم استعداده لأن يسمع أو يفهم أو يفكر، فما النتائج التي يتحملها؟ (الَّذِي يَمْلَأُ النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) (الأعلى/ 12-13)، جزاء ضلالهم وفجورهم وفسقهم أنهم يدخلون إلى النار ويأكلون الزقوم ولا يطيقون العذاب، فيتمنون الموت طنبا منهم أنهم يتخلّصون من هذا العذاب (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّنَا رَبُّكَ) (الزخرف/ 77)، خلاصنا فليقض ربك علينا بالموت. وبأتيبهم الجواب سريعا (قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ) (الزخرف/ 77)، لا، ثم لا يموت فيهما ولا يحييا (الأعلى/ 13)، لا يحس براحة الموت، ولا يحس بطعم الحياة.

هذا الشقي، وأما السعيد (فَدَّ أَوْفَلَاحَ مَنْ تَزَكَّى) (الأعلى/ 14)، الناجح المفلح الذي تظهر علامات النجاح في دروبه ونهايات أمره، والمطمئن للنتائج الإيجابية في حياته، هو الذي يركب نفسه ويطهر ربه، وينمي الطاقات الحية الإيجابية فيها على خط الورع والتقوى، وهذا السعيد، من بقي ذكر ربه حاضرا في وعيه (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الأعلى/ 15)، لم يذكره باللسان وحسب، بل ذكره حضورا في وعيه في كل منطلقاته حياته، ولذلك فإنه يصلح، لا من خلال العادة، ولكن من خلال وعيه لمقام ربه وإحساسه بعبوديته له، وإيمانه بأن عليه أن يقوم لربه في ليله ونهاره.. وهذا هو سر الفلاح وسر النجاح.

ولكن، ما مشكلة هؤلاء الذين لم يخشوا مقام ربهم فطغوا واستكبروا وانحرفوا وضلوا؟ (بَلْ تُوذَرُونَ السَّعْيَةَ الدُّنْيَا) (الأعلى/ 16)، تفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، كما لو أن الدنيا خالدة لا تنفي، وكما لو أنها مطلوبة لنفسها، بينما هذه الحياة الدنيا مطلوبة لغيرها (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص/ 77)، لك حظ في الدنيا، لكن الدنيا ليست كل حظك "الدنيا مزرعة الآخرة" (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى/ 17)، خير من الدنيا وأبقى، لأن نعيمها يختلف عن نعيم الدنيا، ومدى الآخرة غير مدى الدنيا، مدى الدنيا هو مدى عمرك، ومدى الآخرة هو مدى الخلود، ونعيم الدنيا ممزوجة بالشقاء والراحة والفرح والحزن، أما نعيم الآخرة، ففرح لا حزن معه، وراحة لا تعب معها، ولذا هي خير وأبقى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبِئَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (الكهف/ 46).

وهذا الحديث الذي يتلوه رسول الله (ص) عن الله تبارك وتعالى، ليس حديثه وحده، إنما هو حديث الأنبياء - عليهم السلام - الذين أرسلهم الله ليذكروا الناس بالله، ليتخذوا طريق الفلاح، بأن يذكروا أنفسهم ويذكروا اسم ربهم ويصلوا له (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) (الأعلى/ 18-19)، كي يسبوا على ما سار عليه الأنبياء، وينطلقوا في الخط الذي انطلق فيه الأنبياء ليصلوا إلى الله من أقرب طريق.

